

الترنم بالحجاز

عند محمد إقبال

د. محمد عبد المنعم خفاجي (*)

ومن كان في الفكر الإسلامي الحديث، لقد حمل عصاه وطاف بالعالم يترنم بأنشودة البعث الروحي الإسلام الجديد، إقبال علم خالد في تاريخ الإسلام والمسلمين في العصر الحديث وينشد أغاريده عن مجد الإسلام وحضارته وزعامته للعالم طيلة ثمانية قرون حقا عاش إقبال ثلثي قرن (٢٤ كم ذي الحجة ١٢٨٩ - ١٩ من صفر ١٣٥٧ هـ - ٦ ديسمبر ١٨٧٢ - ٢١ من إبريل ١٩٣٨) وهو يترنم بمجد الإسلام وحضارته وأثره على المؤمنين برسالته.

عاش يناضل من أجل الإسلام في وطنه، رائدا للفكر الديني، مناضلا من أجل حرية الوطن الإسلامي، ومدافعا عنه شعبه المسلم في الهند، وأخذ ينتصر لقضايا الحرية في وطنه، وصار عضواً عاملاً في كل التنظيمات الوطنية والسياسية، ومن بينها: مؤتمر المائدة المستديرة، وحزب الرابطة الإسلامية، ودعا إقبال إلى دولة مستقلة لمسلمي الهند وتشمل المناطق ذات الأغلبية المسلمة، فكان الأب الروحي لباكستان، وفي محاضراته التي ألقاها في الاحتفال السنوي لحزب الرابطة الإسلامية في مدينة الله آباد في ديسمبر سنة ١٩٣٠ قال بصوت قوي:

(*) أستاذ الأدب العربي بجامعة الأزهر.

"أرجو تأييدكم وموافقتكم على أن تتكون من مقاطعات البنجاب والحدود الشمالية والسند وبلوختان دولة واحدة.. وبعد ذلك بعشرة أعوام قرر حزب الرابطة الإسلامية بزعامة محمد علي جناح عام ١٩٤٠ تحقيق فكرة إقبال في قيام باكستان. وقامت باكستان بعد وفاة إقبال بنحو تسع سنوات، وذلك في الحادي عشر من شوال سنة ١٣٦٧هـ - الثامن والعشرين من أغسطس سنة ١٩٤٧م.

وقد ولد إقبال في مدينة سيالكوت بإقليم البنجاب، من أسرة برهمية دخلت في الإسلام، وأب صالح شمله بحنانه، وقضى طفولته في ظل والديه، حفظ القرآن، وأكمل تعليمه الابتدائي والثانوي، وأتم دراسته بالكلية الحكومية بـلاهور عاصمة البنجاب، وعين مدرسا للتاريخ والفلسفة في الكلية الشرقية بـلاهور، ثم مدرسا للغة الإنجليزية بالكلية الحكومية، وسافر في بعثة حكومية إلى لندن عام ١٩٠٥ وحصل على درجة علمية في الفلسفة والاقتصاد .. ورحل إلى ميونخ بألمانيا، فنال من جامعتها الدكتوراه في الفلسفة، وعاد إلى لندن لحضور الامتحان النهائي في الحقوق فحصل على درجة جيد في القانون، وعمل مدرسا في جامعة لندن لتدريس اللغة العربية، وطاف بعواصم أوروبا، وأخذ يكتب عن الإسلام الفصول الطويلة، ويحاضر عنه وعن حضارته وأعلامه في كل مكان، وذاعت شهرته في أوروبا، وفي عودته من أوروبا إلى بلاده مر بصقلية، وتذكر الحضارة الإسلامية وأثارها هناك، فبكى وكتبت قصيدته:

أعيني هذا أوان البكاء نشدتكما الله ألا تبخلا

وفي الحادي والعشرين من إبريل عام ١٩٣٨ ودع إقبال "الحياة" بعد أن بلغ المجد وذبوع الصيت ما لم يبلغه شاعر أو مفكر في عصره،

وبعد أن ردد الشرق والغرب شعره وفكره، وأصبح شاعر الشرق، وصاحب دعوة التجديد والبناء، والفكر الديني الإنساني المستنير.

وكانت وفاته قبل قيام دولة باكستان بتسعة أعوام.

نعى محمد علي جناح رئيس الرابطة الإسلامية بالهند آنذاك الشاعر إقبالاً فقال:

"كان إقبال شاعراً منقطع النظير، طبق صيته الآفاق، وستبقى كلماته حية أبداً، وإن مساعيه لأمته وبلده، لتضعه في صف أكبر عظماء الهند، وإن وفاته اليوم لخسارة كبيرة لأمته بعامته وللمسلمين بخاصة.."

وكتب القائد الأعظم إلى ابن إقبال يعزيه في وفاة أبيه قائلاً:
لقد كان والدك صديقاً لي ومرشداً وفيلسوفاً، وكان في أحلك الساعات التي مرت بالرابطة الإسلامية كالصخرة، لم يزلزل لحظة واحدة.

ورثاه طاغور شاعر الهند فقال:

لا ريب عندي أن ما ناله شعر إقبال من قبول وصيت يرجع إلى ما فيه من نور الأدب الخالد وعظمته، ويقيني أنني وأنا وإقبالاً عاملاً للصدق والجمال في الأدب؛ ونحن نلتقي حيث يقدم القلب الإنساني والعقل إلى عالم الإنسانية أجمل هديهما وأروعها.

لقد تركت وفاة إقبال في أدينا فراغاً لن يملأ إلا بعد مدة طويلة، وإن موت شاعر عالمي كهذا مصيبة "لا تحتلمها بلادنا"

ولإقبال دواوين شعرية عديدة باللغتين الأوردية والفارسية وهي تحمل فكر إقبال وفلسفته التي أثرت فيها بعض التأثير بجلال الدين الرومي (٦٠٤ - ٦٧٢هـ).

والدواوين الأوردية هي:

رنين الجرس ثلاثة أجزاء - جناح جبريل - ضرب الكليم - هدية الحجاز وهو قسمان قسم بالفارسية وقسم بالأوردية.

والدواوين الفارسية هي:

الأسرار والرموز - رسالة المشرق - زبور العجم - رسالة الخلود

- هدية الحجاز.

وهو آخر دواوينه صدوراً، ويحمل خلاصاً لفكره وأدبه وشخصيته ولمذهبه "....." التي ظل يدعو إليها طيلة حياته والإسلام والحياة هما عند إقبال موضوع شعره الذي شمل ضروباً من الشعر الوجداني والقصصي والتعليمي والديني.

وظل إقبال يدعو إلى عودة المجد الإسلامي والمنهج القرآني والروح المحمدية وبعث الحضارة الإسلامية. وكتابه "تجديد بناء الفكر الديني في الإسلام" يتضمن الكثير من أصول فكره الإسلامي المضيء، وهو سلسلة محاضرات بالإنجليزية ألقاها إقبال عام ١٩٢٨.

وفلسفة إقبال دعوة للإنسان المسلم إلى الذاتية: استقلالاً في الفكر، وابتكاراً في العمل، وتجديداً للبناء الروحي، وشوقاً إلى الكمال الإنساني، ودعوة إلى السلام والأدب وجميع الفنون تهدف إلى تخلق الإنسان بأخلاق القرآن لتحقيق خلافته الله في الأرض، وفلسفة الجوانية عند د. عثمان أمين قبس من فلسفة الذاتية عند إقبال.

ولقد شاهدت إقبالاً في ثاني ديسمبر ١٩٣١ وأنا طالب بالثانوي في معهد الزقازيق واستمعت إلى محاضراته مساء ذلك اليوم في جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة، وكنت قد سافرت من الزقازيق لسماع إقبال ورؤيته، وفي هذه الليلة رحب بإقبال د. عبد الوهاب عزام رحمه الله. وعدد من الشعراء منهم شاعر الأهرام محمد عبد الغني حسن.. وقد ألقى إقبال

محاضراته بالإنجليزية ولخص ترجمة لها الدكتور عبد الوهاب عزام وتدور حول الزمن والمادة وفلسفة الذات وعدة أفكار فلسفية أخرى وآراء إقبال في كل ذلك.

ولقد قضى إقبال حياته كلها متشوقاً إلى ربوع الإسلام الأولى في مكة والمدينة، وصحاري الحجاز، داعياً إلى مبادئه السمحة، ومنهجه العظيم. ودعوته النبيلة إلى الحق والعدل وإلى المساواة والإخاء والحرية وإلى حقوق الإنسان في كل زمان ومكان. وهي الحقوق التي عاشت الإنسانية كلها تحلم بها، ظامنة إلى منهلها العذب وإلى عطائها اللامحدود.

وعاش إقبال يعيش إلى الحجاز وربوعه، ويحلم بمشاهدة معالمه وبخاصة مكة والمدينة، ويترنم بألحان الشوق والهيّام إلى أرض النبوة ومهد الإسلام مما سجله في ديوانه "هدية الحجاز" شعراً بليغاً ورباعيات فائقة الحد في الجمال والروعة، القسم الفارسي من "هدية الحجاز" ترجمة شعراً د. حسين مجيب المصري (١٩١٨ - ١٢ من ديسمبر ٢٠٠٤) والثاني ترجمة من الأوردية نثراً د. حازم محفوظ ونظمه شعراً الدكتور جسين مجيب، ومن موضوعاته: إبليس في مجلس شوره، الصورة والمصور، عالم البرزخ.

وللأسف لم يتحقق حلم إقبال الأكبر في مشاهدة وطن الحجاز وربوعه ومدينته الخالدتين: مكة والمدينة، لأن شغله الشاغل كان هو العمل من أجل تحرير الهند من نير الاستعمار البريطاني وتأسيس دولة إسلامية مستقلة في الهند، مما حرمه من بلوغ هذا الأمل الكبير في نفسه وفي حياته. وبسبب ذلك ألف ديوانه "هدية الحجاز" يصف فيه حلمه بأنه سعى إلى هذه الأرض المباركة ومشى في صحرائها وطاف بمدينتيها مكة والمدينة، وقبل الحجر الأسود ووقف أمام الروضة النبوية يدعو للإسلام

وللمسلمين بالنصر والمجد، كما يكرر دعوته القوية إلى مبادئ الإسلام، من حق وعدل ومساواة وإخاء وحرية.

وتقديم الدكتور حسين مجيب المصري في غاية البلاغة، والتوضيح لأهمية فكر إقبال ولأهمية كتابه (هدية الحجاز) وهو من أروع ما يكتب في مقدمة عمل كبير كهذا العمل. يقول الدكتور حسين في هذا التقديم:

١- اصطنع إقبال الشعر وسيلته المثلّية إلى التعبير عن التفكير والشعور، تالياً في ذلك تلو الشعراء الفرس القدماء في نظرهم إلى الشعر على أنه خير ما يؤدي المعنى الفائق باللفظ الرائق.

٢- وقد بحسب إقبال في عدد الشعراء الفرس لأن جل مؤلفاته بالفارسية، ولأنه يشبههم في ولوعه بالرباعية كفن شعري جميل. والرباعية تتألف من أربعة أسطر يتحد فيها الشطر الأول والثاني والرابع في الروي. ويختلف الثالث. وهذا النمط الشعري الجميل هو نمط يجمعون على قدمه وأصالته عند الشعراء الفارسيين، ويعتزون به كمظهر من مظاهر قوميتهم. وحرص شاعر الرباعية على تساوق كلامه. وعلى الكشف بالقليل من الفقر عن الكثير من الأفكار والمعاني.

والقسم الفارسي من "هدية الحجاز" يشتمل على ثلاثة أبواب:-

الباب الأول: عن الله عز وجل

وهو رباعيات كثيرة كلها أشواق وتمجيد للذات الإلهية وشكوى من سوء حالة المسلمين في الهند مثل قوله في ضراعة إلى المولى الأعظم:

لعبد الهند ليل ضاع فجره

وأيّن الشمس بل قل أين بدره؟

أنا المسكين فلترفق بحالي

أمثلي مسلم قد عيل صبره

الباب الثاني: عن الرسالة

ويجنح إقبال فيه إلى رمزية حالمة يستشف فيها أنه سعى إلى بيت الله الحرام حاجاً وأن فؤاده مشوق إلى هذه الأرض المباركة مهد الإسلام ويصف مشاعره ومواقفه ومواكبه التي سار فيها.

ويؤكد إقبال ذلك بقوله: صل قلبك بالله، واسلك طريق رسوله المصطفى، ويدعو إلى التأدب بآداب الإسلام والعمل بتعاليمه.

حلم كبير في نفس إقبال رآه أو تخيله ولكنه صورة أبلغ تصوير في "هدية الحجاز" إذ يصور مواكب الحج وكأنه يمشي في زحامها ويسير بين السائرين فيها، ويقف أمام الكعبة في خشوع وضراعة وحب عميق للإسلام الذي أهدى للإنسانية كلها وإلى العالم كافة كل حق وعدل وخير، وما أروع دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا، عاش الناس في ظلاله ومشى البشرية في مواكبه الهادرة الظافرة، وأمن به الناس في الشرق والغرب حركة تحرير كبرى للإنسان من أغلاله، ومن القيود والسلاسل التي طوقت عنقه في العصور المظلمة البائدة.

يقول إقبال:

على نغم الحجاز شربت كأسى
وما إن قدموا قبلا مداما

ويقول:

أتسأل عن مقامات للحنى
وماذا يعرف الندمان عني
لقد ألقيت في الصحراء رحلي
وفيها أختلي حتى أغني

ويقول:

وَقَلَّتْ لَنَا قَتْلِي بِالرَّفَقِ سِيرِي
بَشِيخِ هَائِمِ دَنْفِ حَسِيرِ
وَسَارَتْ نَاقَتِي سِيرَا عَنِيْفَا
أَتَخْطُو فِي الرَّمَالِ أُمَ الحَرِيرِ

ويقول:

وَلَا تَسْأَلْ عَنِ الرِّكْبِ السَّكَارَى
فَمَا يَرْضَوْنَ تِلْكَ الدَّارَ دَارَا
يَدُقُ قُلُوبَهُمْ جَرَسَ مَدَوٍّ
نَسِيمَا فِي ذُرَى الصَّحْرَاءِ ثَارَا

ثم إذا بالشاعر يحلم بأنه واقف أمام الروضة النبوية الشريفة -
يدعو للإسلام والمؤمنين به بالنصر والمجد الكبير، ويدعو لهم بالإيمان
وبالعودة إلى المنهج القرآني الحكيم لأنه هو الشفاء والدواء للإنسانية من
كل عللها وأمراضها.

يقول إقبال:

بَأَرْضِكَ حَرَقَةُ الْأَلْحَانِ حَسْبِي
وَبِدْءُ وَانْتِهَاءِ مَنْكَ حَسْبِي
لَرْنِي قَلَّتْ مَنْتَشِيَا بِوُجْدِي
رَسُولُ اللَّهِ يَا رَحْمَنَ حَسْبِي

ويقول إقبال:

لِيُثْرِبَ كَانَ فِي كِبَرِي رَحِيلِي
وَبِي فَرَحِ اللَّقَاءِ مَعَ الْخَلِيلِ

كأنني الطير قبل الليل يمضي
ويبغى العش في الروض الجميل

وهنا نذكر قصيدة إقبال من ديوانه "رنين الجرس" يقول فيها:

حينما ثقلت عليّ ضوضاء العصر
رحلت إليه بعدما جهزت زاد السفر
ذهبت الملائكة بي إلى حضرة انبي
فأخذني الرسول في رحمته
وقال الرسول يا عندليب حديقة الحجاز
أن البراعم كلها تكاد تذبل من حدة نواحك
حينما طرت من الأرض المنخفضة إلى السماء
علمتك الملائكة رفعة الطيران
يا رسول الله ليس لي في الدهر رغد في العيش
أن الحياة التي أبحث عنها لا وجود لها
لكن أنا أتيت بغصن للإهداء

أما الباب الثالث: من "هدية الحجاز"

فهو عن المجتمع والشعب، ولا دخل له بأشواق إقبال إلى الأماكن المقدسة لأنه تصوير لكل ما يقاسيه المجتمع الإسلامي من علل وأمراض، كالمرض والفقر والامية والبطالة وغير ذلك، وفيه يتحدث عن التعليم وعن الفتاة المسلمة وعن الشباب وسوى ذلك.

هذا هو إقبال فكر مضيئاً، وهذا كتابه "هدية الحجاز" أشواق وجدانية إلى الأماكن المقدسة التي شهدت مجد الإسلام والحياة الأولى للمسلمين.

رحم الله إقبالا وأكرمه في مثواه.....

